

حزب البيئة اللبناني نحو أيديولوجيا أكثر مثالية وعالمية

في وقت يكثُر الحديث عن <<نهاية التاريخ>> و<<نهاية الأيديولوجيا>>، وفي وقت كان احد اهم الاسباب لتهرب التجمعات <<والحركات>> السياسية التي نشأت عندنا مؤخرًا، من تصنيف نفسها بانها <<احزاب>>، ان لا يتم مطالبتها <<بالأيديولوجيا>>، الساقطة والمنتهية عالميا، والتي باتت تحمل معاني سلبية كما يروج... نعتقد ان <<الحركة البيئية>>، اذا ارادت ان تنسجم مع قضيتها ذات الطابع الشمولي والعالمي؛ لا يمكن الا ان تكون أيديولوجية وان تنظم نفسها في احزاب، في مرحلتها التأسيسية على الاقل.

لم يبدأ الترويج لسقوط الأيديولوجيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ولا مع مقولات فوكوياما حول نهاية التاريخ وانتصار الرأسمالية. قد يكون اول من استعمل تعبير <<نهاية عصر الأيديولوجيا>>، من حيث ان الأيديولوجيا تعني الثورة واليوتوبيا، هو المفكر الفرنسي اليميني ريمون ارون العام ١٩٥٥، في كتابه <<افيون المثقفين>>. وقد رأى الكثير من النقاد ايضا ان الاحلام والآمال اليوتوبية انتهت او انهارت منذ الخمسينيات.

الا ان الذي انهار فعلا، في تلك الحقبة وما بعدها، هو الاعتقاد بان المستقبل يمكن ان يكون مختلفا. لكن عند آخرين فان الحرب العالمية الاولى والستالينية والنازية قامت كلها بانجاز مهمة انهاء الآمال اليوتوبية والأيديولوجية. في حين يرد المؤرخ يوجين ويبر الفترة التي تشكل فيها العداء لليوتوبيا، الى السنوات التالية على الحرب العالمية الاولى، <<حين بقيت الآمال الكبيرة، التي بلغت ذروتها في العامين ١٩١٧ و ١٩١٨، دون ان تتحقق>> كما يقول.

الحديث عن النهايات يتجدد كما هو ملاحظ اذًا، كلما فشلت محاولات التغيير وكما اخفقت المشاريع الفكرية والفلسفية الكبرى (ولاسيما المثالية والثورية منها) في التحقق فعلا سياسيا واجتماعيا. الا ان فكرة النهايات والموت نفسها، هي فكرة <<أيديولوجية>> وفلسفية ايضا. حتى الفلسفة العدمية، التي بشرت بلا قيمة القيم، كانت فلسفة قيمية او تقييمية، هي ايضا. والمعادلة في هذا المجال واضحة: لنفي او الغاء او نقض او نقد اي فكر أيديولوجي، نحن بحاجة الى أيديولوجيا جديدة. وتكون الخلاصة المنطقية لهذه المعادلة ان ليس هناك من فكر غير أيديولوجي.

وهكذا يمكن الاستنتاج ان لا مفر من الأيديولوجيا، بما هي، حسب رؤيتنا وتعريفنا، منظومة من الافكار الكلية والعامة، لجماعة او لفرد، المتسقة (وغير المتناقضة) ذاتيا، المستندة الى <<العلم>> والتي تعتمد على تصور معين او على فلسفة معينة للكون والوجود والتاريخ والانسان والبيئة والمجتمع، وتحمل قيما عليا قابلة للتحقق في المجتمع من خلال العمل السياسي. وان الانسان الأيديولوجي، هو الانسان الملتزم بهذه الافكار وهذه القيم والذي يعمل في السياسة من اجل تحقيقها في المجتمع.

ولعل ما هو مطلوب اليوم، ليس الاعتراف بالادعاء بنهاية عصر الأيديولوجيات، بل ابتداء أيديولوجيا جديدة، تستفيد من تجارب الأيديولوجيات السابقة، وتكون عالمية فعلا، وتسعى لتحقيق قيم عليا فعلا، وتكون هي نفسها عابرة للأيديولوجيات، على ان يتحقق بتحققها خير عام لا كوارث عامة.

هذا التعريف، كما نقترحه للأيديولوجيا، يعود الى المعنى الاصلي والاستعمالات الاولى للمفهوم، الذي كان يحمل معنى ايجابيا، كمجرد <<علم الافكار>>، مع ديستوت دي تراسي، قبل ان يتم استخدامه بمعنى <<النظريات البعيدة عن الواقع>>، كما فهمه نابليون بونابرت، او <<مجرد وعي زائف بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية>> كما خلع عليه كارل ماركس من دلالة.

اعتبر البعض ايضا ان الأيديولوجيا تعبر عن افكار ومعتقدات راسخة وثابتة في لاوعي جماعة او فرد ما، وبانها غير علمية لا بل ضد <<العلم>>. الا ان الأيديولوجيا كما نفهمها، هي

بالضرورة سياسية، منظر لها وتستند الى العلم، علم ومعرفة العصر. وهي بالتالي ليست ضمنية او غير واعية. ولا هي <<ظاهرة اعتقادية جماعية>> او <<منظومة اعتقادية ترتكز على الايمان بحقيقة معينة>>. انها كناية عن منظومة من الافكار والقراءات والقيم المشتركة لجماعة ما، تتوافق عليها وتتبناها، وتناضل من اجل تحققها في المجتمع؛ وتعتقد ان في تحققها، يتحقق الخير العام.

ولعل الخير الأعم، بالنسبة الى النوع البشري، هو في المحافظة على بقائه اولاً، وعلى مقومات وشروط ومتطلبات البقاء والحياة.

وبما ان الايديولوجيا هي تصور ورؤية، كما اسلفنا، يمكن القول ايضاً، ان ليس هناك من تصورات وافكار خارج دائرة المعرفة والعلم. او كما كان يقول هيغل <<العصر مستوعب في فكر>>، اي لكل عصر فكره وعلمه. وان الافكار هي التي تقود العالم. ودائماً عبر التاريخ كان هناك افكار مسيطرة. الا ان تصورات وافكار وعلوم ومعارف بداية القرن العشرين وما قبله، ليست هي نفسها معارف بداية القرن الحادي والعشرين. وهكذا على تصوراتنا وافكارنا اليوم ان تستند الى معارف وعلوم العصر. ولكن اي علم؟

كان العلم بداية مجرد تصور (ملاحظة) او رأي، حتى ان عالماً مثل هكسلي، وهو من كبار شراح ومروجي نظرية داروين، قد عرف العلم كمجرد <<حس عام منظم>>. بينما رأى كبار الفلاسفة القدماء ان هدف العلم <<المساهمة في فهم (وليس معرفة) الطبيعة>>. واذ اعتبر ارسطو ان جوهر العلم وأهم مقوماته هو الضرورة واليقين والمعرفة المطلقة وان المنهج اليقيني هو الاستبطان (الاستنتاج من الكل الى الجزء)... رأت الثورات العلمية الحديثة ان من مقومات العلم المنطقي الحديث: الموضوعية والتجريب والاستقراء (من الجزء الى الكل)، مع استبعاد كل التفسيرات الميتافيزيقية الخارجة عن المادة والعالم. اما البيولوجي المعاصر ارنست ماير فيرى ان روافد المعرفة التي انبثقت منها المفاهيم السائدة للعلم في عصر الثورة العلمية كانت الفلك والرياضيات والميكانيكا وليس البيولوجيا. وان مناهج هذه العلوم كانت قاصرة في تطبيقاتها على مقارنة العلوم البيولوجية، حيث عجزت عن تفسير ظواهر الحياة وتطورها. ويعتبر ماير ان علوم الفيزياء الكلاسيكية التي بنيت عليها الفلسفة الكلاسيكية للعلم وبرز النظريات الايديولوجية، كانت قد سادتها مجموعة من الافكار (التي لا تصلح لعلم الحياة) مثل الجوهرية والحتمية والعالمية والاحالية، بينما يقوم علم البيولوجيا على مقولات شبه متناقضة كالتفكير التجمعي والاحتمال والمصادفة والتعددية والانبثاق... ما يفترض ان ينعكس في فلسفة جديدة في العلم، ورؤية جديدة في الايديولوجيا، تأخذ في الاعتبار هذه الاتجاهات الجديدة.

الايديولوجيا التي يفترض ان يتبناها حزب للبيئة اذاً، هي المستندة الى علم الايكولوجيا، او علوم الحياة بشكل عام. يقول ماير <<ان تاريخ الحياة واستقراء هذا التاريخ، يكشفان عن وجود تيار متصل، بدأ منذ نشأة الحياة وسريانها في ابسط الكائنات وارتقائها لتسري في الاشجار العملاقة والفيلة والحيتان والأدميين>>. وقد اطلق البعض مقولة <<شبكة الحياة>> للتعبير عن الاتصال الموجود بين الكائنات على طريقة الشبكة، وكأن هناك خيطاً واحداً يجمع ويربط بين كل عناصر الطبيعة، واي اختلال يحصل في مكان ما، على او مع كائن ما، يمكن ان يصيب كافة الكائنات، وما يسمى <<الحياة>>.

من هنا يمكن تعريف <<القضية البيئية>>، بتلك المشكلات الناجمة عن سوء تفاعل الانسان مع الطبيعة عبر حضارته كلها، اي عبر نظامه الانتاجي والاستهلاكي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والمعرفي وعبر قيمه وسلوكه... هذه المشكلات (ولا سيما الكبرى والكونية منها مثل تغير المناخ العالمي وسرعة انقراض الانواع وتهديد التنوع البيولوجي...) التي باتت تهدد اساس ومقومات وشروط الحياة نفسها.

وبما ان لكل ايديولوجيا قيماً علياً تؤمن بها وتدافع عنها وتعتبرها صالحة للجماعة التي تخدمها، فإن على الايديولوجيا الايكولوجية ان تدافع عن مصالح كل انسان واي انسان وعن النوع

الانساني نفسه، والتي لا تنفصل عن <<مصالح>> بقية الكائنات الحية أيضا كما اسلفنا، نظرا لارتباط الجميع بوحدة الوجود والمصير.

وإذا كانت الحرية هي القيمة العليا في الايديولوجيا الليبرالية، والمساواة هي القيمة العليا في الايديولوجيا العمالية الاشتراكية والعمل المنتج والريح والاستهلاك هي القيم العليا في الايديولوجيا الرأسمالية والاخوة والمروءة والعزة القومية هي القيم العليا للايديولوجيا القومية، فالمحافظة على الحياة هي القيمة العليا في الايديولوجيا البيئية.

تاريخيا، ارتبط الفكر الايديولوجي بوجود جماعة تاريخية خاصة، سواء كانت امة او قومية او عرقا او طائفة او طبقة او اثنية... الخ، الا ان طبيعة القضية البيئية قد فرضت نفسها في عموميتها وعالميتها وكونيتها، فأضحى على الفكر الايديولوجي البيئي ان يرتبط جوهريا بوجود الانسان، كنوع، ايا كانت الاشكال الاجتماعية الخاصة التي يتشكل بها وجود هذا النوع في مجرى التاريخ.

© حزب البيئة اللبناني ٢٠٠٥

www.lep.homestead.com